

رؤية الرحالة الأوربيين لعادات وتقاليدهم
المسلمين إبان العصر المملوكي
(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

د/ سماح عبد المنعم السلاوي
كلية البنات- جامعة عين شمس

يتناول هذا البحث دراسة عن عادات وتقاليد المسلمين من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين في العصر المملوكي والذي استمر إلى ما يقرب من قرنين ونصف القرن من الزمان ، حيث لعبت الدولة المملوكية دوراً عظيماً في النهوض بأعباء البلاد واستطاعت حماية العالم الإسلامي والمنطقة العربية من أخطار متعددة ، ولذا فقد تمتعت تلك الدولة بنشاط خارجي على نطاق واسع مع الدول الإسلامية ومع الدول الأجنبية على حد سواء ، حيث هدأت العلاقات بين الشرق والغرب نسبياً ، وخفت حدة الصراع الإسلامي الصليبي ، مما ساعد على تطور ونمو العلاقات بينهما فساعد ذلك على سفر وتجول الأوروبيين إلى بلاد الشرق ، وفي تلك الفترة الطويلة استطاعوا خلالها رصد مراحل الازدهار والانحيار في الدولة المملوكية .

وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أن الرحلة تعد نوعاً من الحركة والتنقل وهي بذلك تقيم اختلاطاً قوياً بين الناس ولذا فإنها عين مبصرة ووجهة نظر مختلفة عن أهل البلد المحليين وهنا تبرز قيمة الرحالة حيث يتمكن من رؤية واضحة وعميقة لبعض الأحداث وللوصف الجغرافي للبلاد مثل التضاريس والمناخ والنبات الطبيعي وللظواهر البيئية والسكانية المختلفة ومدى تأثيرها ويستنتج بعض الأمور ويكشف النقاب عن أشياء وأحداث لم تكن لنعرفها إلا عن طريق كتابات هؤلاء الرحالة حيث لاحظوا ودرسوا أحوال البلاد التي مروا بها في حالة الازدهار ، أو في حالة الانحيار والتدهور ، وقد ترك لنا الرحالة مؤلفات قيمة تسرد ظروف البلاد وشعبها في شتى نواحي الحياة مسجلين أدق الملاحظات والتفاصيل التي قد تبدو للمؤرخين من أبناء البلد شيئاً مألوفاً فلم تلفت نظرهم ، وخلفوا لنا سجلات حافلة بوصف المدن التي زاروها وأحوالها واهتموا بصفة خاصة بأخبار إخوانهم من الغربيين من تجار وحجاج ، وكذلك أحوال الوطنيين كما اهتموا بوصف المدن المصرية والشامية وثغورهما والطرق المؤدية لكل مدينة ، بالإضافة إلى ذكر أهم محطات رحلة الحج التي انحصرت بين يافا وبيت المقدس ثم سيناء بمصر ولذا فإنهم تركوا لنا معلومات هامة وذات قيمة عن كل بقعة شاهدها .

كما حوت معلومات طريفة وغريبة من خلال رؤيتهم الخاصة بهم فسجلوها بعكس ما رآه كثير من المؤرخين المسلمين أمراً عادياً لا يستحق التسجيل ، كما نوضح أن ما ذكره هؤلاء الرحالة مجرد إشارات عابرة في حاجة إلى توضيح وتحليل ، كما يجب أن نتناول كتاباتهم وآرائهم بشيء من الشك والتدقيق بسبب اتجاههم نحو التشويق والإثارة فقد استخدموا كلمات مثيرة وفي غير محلها مما يبعدنا عن الواقع ، كما يجب أن نراعي اختلاف الثقافات والأفكار والبيئة التي نشأ فيها كل رحالة وأثرها على شخصيته واهتماماته ، وهناك بعض

الرحالة الذين نقلوا ودونوا عن الآخرين مشاهدة دون أن يشاهدوا ما دونوه ، والبعض منهم نقل عن بعض المؤلفات السابقة حرفياً دون عرض أو تعليق ، وآخرون سجلوا مشاهداتهم بعد رجوعهم للوطن بعدة سنوات مما عرضهم للنسيان فكانت بعض النصوص غير منضبطة وغير متكاملة

ولذا استعنت بالمصادر العربية المعاصرة لتفسير تلك الإشارات حتى تكتمل الصورة، ومنها نظرتهم لحياة المسلمين من حيث الاحتفالات المتنوعة والملبس والمأكل وآداب الطعام وطريقة النوم والنظافة الشخصية ومراسم دفن الموتى المسلمين ووسائل الترفية والتسلية وطريقة علاجهم لبعض الأمراض في ذلك العصر بالإضافة إلى انتشار بعض الخرافات التي أمنت لها بعض النساء .

احتفالات المسلمين :-

كان عدد المسلمين في العصر المملوكي كبيراً جداً وشكلوا غالبية السكان بصفة عامة ، وقد احتفل المسلمون بأعياد عديدة معظمها دينية وذات مغزى معنوي وروحي في نفوسهم ، مثل ، «عيد الفطر» الذي يلي نهاية صيام شهر رمضان ، ففي مصر استمر العيد لمدة ثلاثة أيام متتالية ، وفي صباح اليوم الأول يذهب جميع المسلمين إلى المسجد لصلاة العيد ، وفي ذلك اليوم كان العامة يجتمعون أمام منزل الإمام الذي سيصلي بهم صلاة العيد في المسجد ، وهم يهللون ويكبرون حتى الوصول إلى المسجد ويلقي خطبة تشتمل على الدعاء والشكر لله ، ثم يخرج من المسجد وحوله العامة والمنشدون حتى يصل إلى منزله ، وجرت العادة في هذا العيد أن يسهر الناس ليلة العيد لتجهيز ملابسهم الجديدة حتى الصباح وشراء الحلوى والخروج لزيارة القبور ويجتمع النساء والرجال معاً يغنون ويمزحون ويتوجهون إلى شاطئ النيل ويستأجرون القوارب للتنزه والتمتع بكل أنواع الترفيه ^(١) ثم «الاحتفال بعيد الأضحى» تكريماً وتشريفاً للنبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، وذلك لأن سيدنا إبراهيم قد أطاع الله عندما أمره بذبح ابنه على الجبل ، لكن الله فداه بأضحى ، ولذلك يقوم المسلمون في ذلك اليوم بذبح الأضاحي ويوزعونها على الفقراء والمحتاجين ^(٢).

أما «الاحتفال بالمولد النبوي الشريف» فكان له طابع خاص ، لأنه أول الأعياد الإسلامية

(١) ابن الحاج ، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري القاسي ، المدخل إلى الشرع الشريف ، دار الحديث ، بيروت ، ١٩٨١ م ، ج ١ ، ص ٢٨٨-٢٨٩ : Schiltberger (J.) The bondage and Travel of Johan. schiltberger. native of Bavaria in Europe . Asia . Africa . (1396-1427) . trans by Karl Fredric . London . 1859.. p. 70

2) Frescobaldi . A visit to the Holy Places trans . by Theophilus Bellorini . Jerusalem . 1948 . p. 68 . Schiltberger . Ibid . p. 71 .

وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الشعب على الاحتفال به احتفالاً يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة ، وكان الاحتفال يبدأ من بداية شهر ربيع الأول ويستمر حتى الثاني عشر من نفس الشهر ، «وكان السلطان يقيم خيمة في الحوش السلطاني بالقلعة سميت بخيمة المولد ، وأول من أقامها هو السلطان قايتباي وكلفها ٣٠ ألف دينار » ، وكان الاحتفال الرسمي يبدأ ظهراً ويستمر حتى ساعة متأخرة من الليل ويبدأ بقراءة القرآن ويجلس مع السلطان شيخ الإسلام والقضاة الأربعة وشيوخ العلم ، وبعد صلاة المغرب تمت أسمطة الطعام المنوع وبعدها ينشد المنشدون ويمدحون في الرسول عليه الصلاة والسلام .^(٢) ، وفي بيوت العامة كانوا يحضرون القراء يتلون آيات القرآن الكريم ، ثم يأتي المنشدون ومعهم الآلات الموسيقية و يقيمون حلقات الذكر .^(٣) ، ومن مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي أنه عند غروب الشمس كان الناس يجتمعون هنا وهناك ويغنون بصوت مرتفع ، وتتطلق المقذوفات النارية من القلعة كما يقوم العامة بإشعال نار شديدة ، ويقصد بها المصاييح المشتعلة ولكنها كبيرة الحجم ، وذكر الرحالة الفرنسي لابروكيير La broquiere « أن تلك النار أو المصاييح الضخمة أكبر وأقوى من الفوانيس وأحياناً يستفيدون منها في إشعال الحريق في أشربة سفن العدو .»^(٤)

كما احتفل المسلمون « بشهر رمضان » احتفالاً كبيراً ، وكان يبدأ مع رؤية هلال رمضان ، حيث يخرج الناس للشوارع وعند التأكد من الهلال يعدون أنفسهم للاحتفال بالشهر الجديد كما يستعد السلطان المملوكي .^(٥) ، ويظل المسلمون طوال شهر رمضان يرقصون ويشربون ويأكلون في الأسواق والشوارع طوال الليل حتى قبل أذان الفجر فيمتنع الجميع عن الطعام

والشراب ويذهبون للصلاة في المساجد^(٦) وقد شهد الرحالة برندباخ breydenbach الاحتفال بليالي رمضان في القاهرة ، حيث «كان الناس يضيئون العديد من المصاييح على مآذن المساجد وفي الشوارع طوال الليل فيتحول إلى نهار وينعمون بالملذات والولائم والبذخ المبالغ فيه يستخدمون الطبول طوال الليل ويستمررون في الغناء والصخب الشديد لدرجة أنه

(٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة المصرية ، ١٩٦٢ م ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

(٣) ابن الحاج ، المدخل إلى الشرع الشريف ، ج ١ ، ص ١١ - ١٤ .

5) Wright , Early Travelers . Travelers in Palestine , London . 1948.p. 256.

-المقذوفات النارية : وربما يقصد لابروكيير هنا البارود الذي يستخدمه المماليك في الرد على غارات القراصنة الأوربيين على السواحل (الباحثة)

6)Dopp .(P.h). Le Caire vu par les voyageurs accident du mogen ages. le caire. 1951 . tome 24 , p. 139 .

7)Frescobaldi , op.cit. pp. 50 , 68 . Fabri . (F.). The book of the Wandering of Felix Fabri (1480-1483 A.D).2vol.p.p.t.s.vol 7-10. trans. by Aubrey Stewart. London .1896 The Wandering , vol 2part 2. p. 636. Schiltberger . op.cit. p. 70.

تعذر عليه النوم. »^(٨) ، أما صديقه فيلكس فابري filx fabri فقد اندهش عندما دخل القاهرة لكثرة الأنوار والمشاعل في الطرقات والأسواق وهي جميلة الأشكال والألوان وبهرت الناظرين و كان يحملها الصغار في الشوارع وهم يغنون ويلعبون ، وعندما سأل عن سبب تلك الضوضاء والزحمة والأنوار قيل له إن ذلك وقت شهر رمضان وفيه يحتفل المسلمون هكذا كل ليلة حتى نهاية الشهر.^(٩)

كما شاهد الرحالة الراهب الأب سوريانو Souriano ”طريقة التسخير“ بعد منتصف الليل حيث يقوم شخص بالضرب على الطبلية ودق الأبواب في الشوارع وهو يغني أناشيد وأغاني جميلة ليستيقظ الناس ويستمر هكذا حتى الصباح.^(١٠) ، وذكر ابن الحاج أنه في وقت التسخير في القاهرة يقوم المؤذن بالوقوف علي المئذنة وينادي « تسحروا وكلوا واشربوا » وما أشبه بذلك أو ينشدون القصائد ويسحرون بالطبلية ويطوفون بها على أصحاب الأرباع وغيرهم علي البيوت ويضربون عليها ، أما أهل الإسكندرية فيسحرون بدق الأبواب علي أصحابها وينادون عليهم ، وكان أهل الشام يقومون بدق الطار وضرب الشبابة والغناء والرقص واللهو^(١١)

كان « الاحتفال بدوران المحمل » من أجمل الاحتفالات التي ينتظرها الناس في القاهرة ، وحرصوا على المشاركة في ذلك الاحتفال فينادى قبل موعده بثلاثة أيام ويقوم الناس بتزيين الحوانيت والمنازل وكانت المرة الأولى لدوران المحمل في نصف رجب ، أما المرة الثانية فكانت في شوال ، وفي ذلك الوقت يقوم أصحاب الحوانيت بتزيينها وتجميل الشوارع وتبيت النساء والأطفال في الأسواق حتى يتسنى لهم مشاهدة الموكب في اليوم التالي ، ويوضع فوق الجمل الذي يحمل المحمل «كسوة الكعبة» ويطوف به في القاهرة والفسطاط ، كذلك يركب جماعة من المماليك السلطانية بملابس الحرب وبأيديهم الرماح ويظل الموكب يتحرك ببطء حتى يصل إلى القلعة ، ثم ينصرف المحمل إلى الفسطاط^(١٢) ، كما كان موكب المحمل يتضمن جماعة من التجار ومعهم حوالي ١٠٠ أو ١٢٠ ألف جمل تحمل البضائع والسلع و كان يقودها أحد الأمراء

الكبار وهو أمير الحج ومعهم ٢٠٠ مملوك ، ومعهم كميات كبيرة من البضائع والأدوية والعطور

8) Larrivaz . (F.) Le Saints Peregrinations de Bernard de Breydenpah 1483. Le Caire . 1904. p. 47

9) Schefer . Le Voyage de Jean Thénau et Dominico Trevisani , Paris. 1864. P. xxiii . See also Prescott . once to Sinai The Further Pilgrimage of Felix Fabri . London. 1957. p. 124

10) Souriano . Treaties on the holy Land . p. 206 . Fabri . The Wandering , vol 2 part 2. p. 63

— مزيد من التفاصيل عن دوران المحمل ، القلقشندي ، شهاب الدين أحمد بن علي ، صبح الأعشي في صناعة الانشا ، ج١٣ ، القاهرة ، ١٩١٢م ، ج٤ ، ص٥٧-٥٨ ، ٥٨٧ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة تحقيق مصطفى السقا ، كامل المهندس ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٩م ، ص١٩٩-٢٠٠ ، السيوطي ، الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج٢ تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ج١ ، ص٨٨ ، ج٢ ، ص٨٨ ، ١١٩ ، ٩٨ ، ٢١٠ . (١١) ابن الحاج ، الدخول الي الشرع الشريف ، ج٢ ، ص ٢٥٥ .

— آلة الشبابة : وهي من فضيلة الناي وهي عبارة عن قصبه جوفاء في جوانبها ثوب ينفخ فيها وبعض ثوبها مفتوحة والأخرى مسدودة ، انظر ، الموسوعة العربية الالكترونية ، مادة الناي.

(١٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١٨١- ١٨٢ .

والأحجار الكريمة .^(١٣) ، وهكذا « كانت قافلة الحج ترحل إلى مكة في الأوقات المعتادة مع احتفالات الناس ومعهم جماعة من راكبي الجمال أو الخيول أو مترجمين وتظل ثلاثين يوماً حتى تصل إلى مكة ، وتبقى حتى ينتهي سوق التجار وينتهي الحجاج من أداء مناسكهم فترحل مرة أخرى إلى القاهرة . »^(١٤) ، وبذلك كانت رحلة الحج مرتبطة برحلة التجارة وبالتالي كانت قافلة الحجاج تضم على الحجاج لأداء الفريضة والتجار لأداء مهام تجارية

وعند عودة قافلة الحج من مكة يخرج حاكم المدينة والنبلاء والأمراء وبعض الأعيان لمقابلة القافلة وهم يحملون القرآن وقد زينوا الجمال والخيول بالحريز وعلى ظهور الخيول سروج جميلة مطرزة بالذهب والفضة ، ومعهم الموسيقيون والمنشدون الذين يضربون على الدفوف ويسيرون أمام الجمال ، ويغنون بصوت عالٍ وحول القافلة عدد من الأمراء المماليك المسلحون بالسيوف بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الجنود والعساكر من مختلف الأجناس .^(١٥)

شاهد الرحالة الأجانب « حفل زواج امرأة مسلمة » وقد اندهشوا كثيراً وأعجبوا بما شاهدوه في ذلك الحفل ، وبداية يجب أن نوضح أن الزواج كان يتم على عدة مراحل ، المرحلة الأولى هي الخطوبة ، والثانية هي عقد الزواج ، والثالثة إعداد مستلزمات واحتياجات العروس ، ثم ليلة الزفاف وفي تلك الليلة تقام وليمة كبيرة للرجال ووليمة أخرى للنساء ، ويجتمع الأقارب والجيران في منزل العروس ويقومون بإلباسها وتمشيطها وتزيينها بالوشم برسومات عديدة ورائعة الجمال ، ثم ترتدي ملابسها وتتصدر العروس ذلك الحفل بجمالها وزينتها ويستمر الجميع يرقصون ويغنون وعندما تصل إلى بيت زوجها تقبل يده ، كما جرت العادة ان تقدم لزوجها سيفاً فاخراً تمسكه من طرفه ويتناوله هو من مقبضه ، وتقدم النساء الهدايا من الذهب والفضة ، وكانت إحدى النساء تضع على رأسها تلك الهدايا وتستمر في الرقص أمام العروس حتى نهاية الحفل^(١٦) أما مستلزمات العروس فكانت ملابس كتانية وقطنية ناعمة وطشت وأباريق دمشقية وسجاجيد وسرير وغيرها من المستلزمات للمنزل .^(١٧)

ومن الاحتفالات العائلية التي لفتت أنظار الرحالة أيضاً هو « الاحتفال بختان الأطفال » ، فقد ذكر يوم جارتن Baumgartne أنه شاهد بعض السكان وهم يحتفلون ويرقصون ، وكان هناك حشد وجمع غفير من الناس وهم واقفين فيما عدا واحد فقط كان جالساً على

13)Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 37 .

14)Dopp , Le'Egypte au commencement du quinzime siecle, le Caire , 1950 , p. 45 .

15) Wright , Early Travelers , p. 301 .

16) Frescobaldi op.cit. pp . 167 -68 , Dopp , Le Caire , tome , 24 , pp. 139-140 .

17) Frescobaldi , Ibid.

حصان في وسطهم ، وعندما سأل عن ذلك الاحتفال علم أن ذلك الشخص قد تم ختانه ذلك اليوم وأن الناس يحتفلون به ، كما وضع أن المسلمين يجب أن يختنوا أولادهم قبل أن يصل إلى الثالثة عشر وفقاً للشريعة الإسلامية .^(١٨)

اعتنى الناس في عصر المماليك بمظهرهم العام ، فقد حرصوا على ارتداء أفضل وأرقى أنواع الملابس من حيث الخامات والتصميم والزينة وخاصة المرأة التي اهتمت كثيراً بتطوير ملابسها وزينتها وابتكار أشكال جديدة من الملابس وألوان حديثة للزينة للسعي وراء الأناقة وجمال المظهر الخارجي ، وقد أجمع الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر على تشابه ملابس جميع النساء من حيث شكلها العام ويمكننا تصوير الملابس التي اعتادت المرأة في ذلك العصر على ارتدائها ، ونبدأ بالعباءة المصنوعة من الصوف أو الكتان أو القطن الأبيض الناصع البياض مثل الثلج وتلف بها الجسد كله فهي كانت تسمى أحياناً قميصاً واسعاً طويلاً تصل أطرافه إلى الأرض وله أكمام واسعة .^(١٩) ، وهنا « أنتقد ابن الحاج ملابس المرأة في ذلك العصر لأن الأكمام الطويلة الواسعة كانت تكشف يدها كما كن لا يلبسن السراويل في البيت ويقفن على باب الدور أو على السطوح في ملابس قصيرة مما يكشف عوراتهن . »^(٢٠) ، وتلك كانت ملابس فوقية ، أما التحتية فكانت تصنع من الحرير أو الكتان السكندري الفاخر وبعضهن يرتدين ملابس قطنية تصل إلى الركبة ، « وتلك القمصان التحتية كانت مرصعة أحياناً بالذهب والفضة ويتكلف الواحد منها حوالي مائتي دوكة ذهبية . »^(٢١)

أما السراويل النسائية فكانت حريرية واسعة وطويلة مثل سراويل البحارة وفوقها حزام وأحياناً تكون طويلة أو قصيرة ولكنها مزينة ومرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والزخارف الرائعة «وبلغ قيمة السروال من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ دوكة ذهبية . »^(٢٢) ، كما ارتدت المرأة بصفة عامة البرقع ، أو ما يسمى الآن بالنقاب المصنوع من الحرير الأسود بحيث لا يراها أحد

18) Baumgarten , (M).The Travel of Martin Baumgarten thought Egypt Syria palestine , London .N.D. p. 441 .

١٩) فارتيما ، رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ م ص ٢١ : ابن الفرات ، ناصر الدين محمد عبد الرحيم ، تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ م ٩ ، تحقيق قسطنطين رزق ، نجلاء عز الدين ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٦٧ ، أحداث عام ٧٩٣ هـ :

Souriano. op.cit. p. 203. See Also. Wolff . How Many Miles to Babylon ? . p. 13 .

٢٠) ابن الحاج ، المدخل الي الشرع الشريف ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

21) Frescobaldi , op.cit. p. 47 . 163 .

22)Ibid. p. 162 , Adler , Jewish Travelers . p. 168 , Souriano , Treaties on the holy Land. p. 203 , Schefer , Le Voyage de Jean Thénault . P. 56 .

ولكنها تستطيع رؤية كل شئ من خلال فتحتين في البرقع .^(٢٣) ، كذلك حرصت النساء في ذلك العصر على ارتداء غطاء للرأس عبارة عن عمامة أو ما يشبه القدح أو الكأس الكبير ملفوفاً بقماش ثمين ذي زخارف بديعة ويغطي العمامة ويتدلّى على الجانبين وخلف الظهر^(٢٤) ، أما النساء الأثرياء فكان يضعن طرحة مرصعة ومزينة على رؤوسهن وعيونهن^(٢٥) وارتدت المرأة حذاء في القدم أو خفاً لونه أحمر أو أبيض أو مذهب ومزين بأجمل وأروع الألوان البديعة^(٢٦) ، واستكمالاً للزينة والجمال « فقدكن يضعن الحلي في الرقبة والأذن وأحياناً كن يثقبن الأذن عدة ثقوب تصل ما بين ثمانية إلى عشرة ثقوب ويضعن فيها اللآلئ المختلفة ورسمن بالوشم على الجلد بالألوان الجميلة والتي لا يمكن إزالتها إلا بعد ستة شهور »^(٢٧) ، كما اعتادت المرأة على صبغ الشفاه بالألوان الداكنة ووضع الحلي على الجبهة وفي ذراعها وضعت الأساور والخواتم المصنوعة من الذهب والفضة والحديد أو الجواهر القيمة غالية الثمن .^(٢٨) ، وليس أدل على حرص المرأة على العناية بنفسها وجسدها مما أورده الرحالة بيرو طافور حيث شاهد عدداً كبيراً من العبيد السود يسيرون في الشوارع وهم يصيحون « من يريد الزينة ؟ » ، ولما استفسر عن حقيقة ذلك قيل له « إنهم يقومون بخدمة النساء اللاتي يردن النظافة سراً في الحمامات . »^(٢٩)

لم يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل كانت المرأة في ذلك العصر تتمتع بحرية ، حيث سمح لها بالخروج طوال اليوم للتنزه وتأجير الحمير والبغال من الشوارع وتتحرك بسهولة وتزين وتتعطر وتذهب لزيارة أقاربها وأهلها وأصدقائها .^(٣٠) ، وقد عاب ابن الحاج على خروج المرأة بصفة مستمرة إلى الأسواق وما يترتب على ذلك من مشكلات كانت سبباً في

٢٣ (الوزان ، الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بـ جان ليون الأفريقي وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، السعودية ، ١٣٩٩هـ ، ص ٥٩٢ ؛

Frescobaldi . Ibid . p. 47 . Adler . Ibid . p. 158 . Baumgarten . op .cit . p. 479 . Harff . The Pilgrimage of Arnold Von Harff . trans by Letts Malcolm . London . 1946 p. 124 .

٢٤ (ابن الحاج ، المدخل الي الشرع الشريف ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ؛

Casola . Pilgrimage to Jerusalem . trans . by M. Margaret Newett . Manchester . 1907 . p. 257 . Harff . Ibid . Adler . Ibid . Baumgarten . op .cit . 479 . 25)Frescobaldi . op .cit . p. 47 .

٢٦ (فارتيما ، رحلة فارتيما ، ص ٣١ ؛

Schefer . Le Voyage de Jean Thenaud . P. 65 . See Also . Wolff . op .cit . p. 131 . 27) Adler . Jewish Travelers . p. 168 . 28) Baumgarten . The Travel of Martin Baumgarten . p. 479 .

٢٩ (طافور ، رحلة بيرو طافور في عالم القرن ١٥ م ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٩٧

٣٠ (الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٥٩٢ ؛ ٥٧٧ ؛

Harff . The Pilgrimage of Arnold Von Harff . p. 123 . Schefer . Le Voyage de Jean Thenaud . P. 211 .

وقوع الفاحشة ، « حيث كانت نساء القاهرة يركبن الدواب في الذهاب والعودة ويتعرض لهن المكارى ويلمسهن عند الركوب والنزول ويضع يده على أجسادهن وهن يضعن أيدهن على كتفه وأيدهن ومعاصمهن مكشوفة وتحادثه كأنهن أزواجه »^(٢١) ، كما جرت العادة أن تذهب النساء إلى القبور وتحمل معهن الرياحين والأزهار لوضعها حول القبور مساء يوم الخميس أو الجمعة ظهراً.^(٢٢) ، وكانت زيارة النساء للقبور أشنع وأعظم الأمور لأنها اشتملت على مفاسد عديدة فمنها مشيهن بالليل مع الرجال وكثرة الخلوات وكان فيها أماكن مهياة لذلك ثم كشف وجوههن والتحدث مع الرجال الأجانب .^(٢٣) ، كما اشتملت بعض النساء العاملات بالتجارة ، حيث ذهبن إلى الإسكندرية عن طريق رشيد ودمياط ثم إلى ميناء بولاق ومعهن السلع والبضائع .^(٢٤) ، وهكذا كانت المرأة في العصر المملوكي تتمتع بمميزات مكنتها من حرية الحركة والتنقل مما جعل ابن الحاج ينتقد خروجهن إلى القرافة والقبور ويستكر مخالطة الرجال بالنساء عند القبور وكشف عوراتهن مثل اليد والمعصم .

وأستكمالاً لنقد ابن الحاج للمرأة فقد وصف الرحالة فون هارف von harff نساء القاهرة « بأنهن خليعات وتميزن بالمكر والخديعة والخروج طوال اليوم دون ضيق من زوجها فتستطيع أن تذهب إلى أحد الممالك لقضاء بعض الوقت والتزهر معه في حين يرسل زوجها من يراقبها ويتجسس عليها » وقد شاهد ذلك بنفسه^(٢٥) ، وذلك ما أكده أيضاً فيليكس فابري Filx Fabri عن نساء بيت المقدس ، حيث رأى « أنهن داعرات ويتحركن بخلاعة ويشاغلن الأجانب والمسافرين في الشوارع والأسواق وهم على أسطح المنازل ويوجهن إليهم الإشارات » وذلك دليلاً على الخلاعة والميوعة وقد رأى بنفسه ثلاث نساء يقفن على سطح المنزل ووجهن إشارات للنبلاء الأجانب ليذهبوا إليهن وهنا يكمن الخطر الشديد فإن ذهبا إليهن فسوف يطبق عليهم عقوبات صارمة وفقاً لشريعة المسلمين فعندما يعاشر رجل مسيحي امرأة مسلمة فيكون أمامه خياران إما أن يتزوجها ويعلن إسلامه أو أن يعذب حتى الموت وكلاهما أصعب من الآخر ، ولذلك نصحنه الراهب بعدم النظر إلى نساء المسلمين واقسم أنه لو رأى احد المسلمين ذلك لسوف يضعوننا في السجن ويعذبوننا لأنهم غيرون على نسايتهم وسوف نتعرض للتعذيب

(٢١) ابن الحاج ، المدخل الي الشرع الشريف، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

32) Souriano. Treaties on the holy Land . p. 193 .

(٢٢) ابن الحاج ، المدخل الي الشرع الشريف، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

34) Souriano.op.cit. p.203 . Frescobaldi . A Visit to the Holy Places. pp. 45 -46. See Also . Wolff . How Many Miles to Babylon ? p.143.

35) Harff . op . cit . p.123 .

والإهانة الشديدة^(٣٦) وقد لجأت بعض النساء أحيانا إلى استغلال جمالهن للإيقاع بالرجال فكانت تخرج فى الشارع فى كامل زينتها وتسير أمام الناس بصورة ملفتة للمارة وحينما يطمع فيها احد الرجال ويطلبها ترد عليه بأنه يستطيع أن يتبعها لمنزلها وهناك يدفع ثمن شهوته وأحيانا يصل الثمن إلى قتله وسلب ماله^(٣٧) والحديث هنا عن المرأة يدفعنا نحو الإشارة إلى ظاهرة هامة وهي الخيانة الزوجية كما ذكر الرحالة وفي القصص الشعبية أيضا إلا أنها في أحيان أخرى تشير الي مدي إخلاص المرأة لزوجها وتفانيها في حبه وخدمته^(٣٨) وأيد ذلك الرحالة دومينكو تريفيزاني فذكر « أن الزوجة تقوم بشئون بيتها ثم ترتدي الثياب الحريرية الرقيقة المذهبة لتظهر أمام زوجها في صورة فاتنة ورائعة^(٣٩) وعن أثر الجوارى فى العلاقات الزوجية وفى الحياة العائلية ، وعلى مكانة المرأة فى المجتمع فى العصر المملوكى ، فلا شك أنه قد حدث نوع من الفتور فى العلاقة الزوجية إما بسبب ما يخصصه الزوج لجاريته من أموال ورواتب ، أو بسبب الغيرة الزوجية، فكان وجودهن فى منازل المصريين سببا للشكوى ، ولإثارة الغيرة ، مثلما حدث فى عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م حينما اشتكت زوجة من زوجها إلى السلطان قايتباى لأنه قد تركها وعاشر جاريته^(٤٠) ، ومن ناحية أخرى فإن وجودهن فى البيت طوال اليوم كان سببا فى خروج الزوجات من منازلهن كثيرا طوال فترة النهار دون تضرر من الزوج طالما كانت الجارية تقوم بالأعمال المنزلية وترعى الصغار ، إلى جانب تلبية مطالب الزوج^(٤١) كما اهتمت المرأة بجمالها وملابسها وقد عبر عنه مؤرخو ذلك العصر بقولهم «كانت ترتدي طرحة على رأسها بلغ ثمن الواحدة منها ١٠ آلاف دينار » ، وصوروا لنا ما كن يتحلين به من خلاخيل ذهبية وأطواق مرصعة بالجواهر وثياب واسعة الأكمام .^(٤٢) ، ولكن تلك الثياب قد حدث عليها تغييرات مستمرة فتجد ابن الحاج يعيب على المرأة تلك البدعة التي أحدثتها في ثيابها حيث جعلها ضيقة وقصيرة .^(٤٣) ، كما «عاب المقرئى علي النساء إفراطهن في طول الثياب واتساعها والإفراط في طول الأكمام وأتساعها .»^(٤٤) ، ومهما حدث من تغييرات في ملابس المرأة إلا أن تلك التغيرات والأوامر والقيود التي فرضت عليهن لتغيير ملابسهن لم

36) Fabri , the wandering . vol 1 part 1. p. 263.264 .

٣٧) المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على المقرئى ، السلوك السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ ق٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٨م ، ص ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ابن الحاج ، المدخل الى الشرع ، ص ٢٥٤ .

٣٨) أحمد عبد الرازق ، المرأة فى مصر المملوكية ، الهيئة العامة ، ١٩٩٩م ، ص ١٢٢-١٢٥ .

39) Schefer , Le Voyage de Jean Thénau , p. 211 .

٤٠) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، الهيئة العامة ، ١٩٧٢م ، ص ٦٢ .

٤١) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٣٩ .

٤٢) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ق٣ ، ص ٨١٠ : ابن تقي بردي ، جمال الدين أبو الحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة اهرة ، ج٩ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ج٩ ، ص ١٧٦ .

٤٣) ابن الحاج ، المدخل الى الشرع الشريف ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

٤٤) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ق٣ ، ص ٨٨٤ .

تتفد طوال العصر وغالباً ما كانت النساء تعود إلى ارتداء ذلك النوع من القمصان الطويلة ذات الأكمام الواسعة .

كانت هناك فوارق بين المرأة المسلمة والذمية في عصر المماليك ، فقد كانت المسيحيات يلبسن أزراً ذات لون أزرق واليهوديات ذات لون أصفر والسامريات ذات لون أحمر ، وإذا ارتدت المسلمة الأقمشة الفاخرة القطنية والحريرية ، فكانت الذمية ترتدي الملابس الكتانية ، ذلك علاوة على أن خف الذمية يجب أن يكون لونين مختلفين .^(٤٥) ، على أنه من الواضح أن تلك القيود لم تفرض على الذميات إلا في أوقات الأزمات فقط ولم تؤكد المصادر الإسلامية المعاصرة التزام الذميات بتلك القيود بل على العكس هناك ما يشير إلى تمتعهن بلبس أفخر الثياب وأجمل الأزياء دون التفرقة بينهن وبين المسلمات حسبما يقول ابن الأخوة » إذا خرجن من دورهن ومشين في الطرقات فلا يكدن يعرفن ، وكذلك في الحمامات وربما جلست النصرانية في أعلى الحمام والمسلمات دونها وخرجن إلى الأسواق وجلسن عند التجار فيكرمهن بما يشاهدون من حسن زينتهن فلا يدرون أنهن ذميات .«^(٤٦) ، كما لدينا صور قدمها لنا الرحالة فون هارفف von harff يصور فيها ملابس المرأة المسلمة والذمية حيث لا تجد اختلافا واضحا بينهما .^(٤٧)

أما ملابس الرجال فقد اهتم الرحالة الأوروبيون بوصف ملابسهم بصفة عامة دون تحديد ملابس كل طائفة من الخدم والفلاحين والمماليك والعامة بل كان وصفهم نابعاً من رؤيتهم للرجال في الشوارع والأسواق. كان الرجال يرتدون ملابس قطنية بيضاء وناعمة تشبه الحرير في ملمسها ، والبعض ارتدي ملابس حريرية بيضاء وهي ملابس واسعة وطويلة وغير مبهرجة ، وأحياناً تكون من التيل الرقيق أو الحرير المبطن بالقطن والقليل منهم ارتدى الصوف .^(٤٨) ، وعلى رؤوسهم عمامة ملفوفة حول الرأس مختلفة الارتفاع مصنوعة من الكتان الأبيض .^(٤٩) ، ويرجع اختلاف ارتفاع العمامة وحجمها وفقاً لمكانة الشخص الاجتماعي ، فقد كان الفقهاء والعلماء يلبسون العمام المرتفعة ، ومن أقل منهم في المكانة يرتدي أقل ارتفاعاً وهكذا ، وكانت العمامة على شكل أسطوانتي وعليها شرائط مزركشة ، وأحياناً كانوا لا يرتدون أحذية في القدم ويسيطرون حفاة ، والقليل منهم ارتدي أحذية خشبية وجوارب وعند البرد الشديد ارتدي معظم

(٤٥) القلقشندي ، شهاب الدين أحمد بن علي ، صبح الأعشي في صناعة الانشا ، ج ١٣ ، القاهرة ، ١٩١٣ م ، ج ١٣ ، ص ٣٤٣ ، ٣٨٤ ؛ ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي ، معالم القرية في أحكام الحسبة ، تحقيق روبن لوى ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، ب.ت. ، ص ٤٢ .
(٤٦) ابن الأخوة ، معالم القرية ، ص ٤٣ .

47) Harff .The Pilgrimage of Arnold Von Harff . p. 125 .

48) Frescobaldi . A Visit to the Holy Places . pp.166 – 167 . Schefer . Le Voyage de Jean Thenaud . p. 56 .

49) Frescobaldi .op.cit.p. 47. 167.Langnon. Le Saint Voyage . p. 43 .

الرجال معاطف من جلود الحيوانات مبطنه من الداخل بالفراء .^(٥٠) ، أما السراويل فكانت تصنع من التيل وغالباً لا يرتدونها^(٥١) ، وكان الفرق الوحيد بين المسلمين وبين أهل الذمة الرجال هو لون العمامة فقط حيث ارتدي المسلمون عمامة بيضاء ناصعة ، واليهود عمامة صفراء ، والمسيحيون عمامة زرقاء ، والسامريون عمامة حمراء .^(٥٢)

اعتادت الغالبية العظمى من الناس في العصر المملوكي على شراء الأطعمة المطهية من الأسواق ، حيث انتشرت محلات الطعام في كل مكان وكانت مفتوحة ليلاً ونهاراً وقدمت أجمل وأشهى الأطعمة ، ولا يمكن أن تطهي الزوجة في منزلها بل يذهب زوجها أو الخادم إلي محلات الطباخين والشوائين لشراء ما يلزمهم من الطعام الجاهز يومياً^(٥٣) ، وعادة ما قام الناس بشراء الطعام وكانوا يأكلونه في الشارع وهم جالسون على السجاد على شكل دائرة .^(٥٤) ، ولا يعدون الطعام في منازلهم إلا في المناسبات الخاصة وإعداد الولائم وكانوا يستخدمون الطوب الآجر الذي يحترق بشدة لدرجة الاحمرار ولكنه لا ينتج دخان وأحياناً يصنعون النار من روث الحيوانات مع القش^(٥٥) ، وعلى الرغم من ذلك فإن بيلوتي الكريتي *piloti de Crete* ذكر أن طعام أهل القاهرة كان سيئاً للغاية وكانوا لا يجيدون الطهي داخل منازلهم .^(٥٦) ، وكان الطعام يباع في الشوارع مثل الخبز والماء واللحوم المطبوخة وكل أنواع الفاكهة لأن الشرقيين لا يعدون الطعام في منازلهم ولا شيئاً من ضروريات الحياة ولكنهم يرسلون من يشتري لهم كل شيء يريدونه ، وفي كل أنحاء المدينة توجد المطابخ التي تعد وتجهز فيها أنواع متنوعة من الطعام ، وتميز الشرقيون بالطبخ الجيد والنظافة وكانوا يعطون بعض الرجال الطعام يبيعونه في الشوارع ويحملون فوق رؤوسهم منضدة صغيرة وعليها موقد لتسخين الطعام وماء وملح وكل شيء ضروري ويجلس الناس علي مقاعد في الشوارع ينتظرون الباعة^(٥٧)

أما عن الأعراب فقد جرت العادة أنهم كانوا يعدون مأدبة عظيمة في حالة المناسبات الخاصة ويصنعون الخبز في الرماد ويضعون اللحم النيئ على صخرة فوقه و صخرة أخرى

50) Baumgarten . The Travel of Martin Baumgarten. p. 479 .

51) Adler . (E.N). Jewish Travelers . 1 ed . London . 1930 . p. 158 . Schefer . Le Voyage de Jean Thénau . p. 56 .

52) Dopp . Le Caire . tome . 24 . p. 129 . Harff . The Pilgrimage of Arnold Von Harff. p. 113

٥٣) الوزان . وصف أفريقيا ، ص ٥٩٢ :

Frescobaldi . A Visit to the Holy Places . p. 49 . Adler . op .cit . p. 228 . Schefer . Le Voyage de Jean Thénau . p.60 .

Frescobaldi . Ibid

٥٤) فارتينا ، ص ٣١ :

55) Souriano . Treaties on the holy Land . p. 192 .

56)Dopp . Le Egypte . p. 108 .

57) Frescobaldi . op .cit . p. 143 .

أسفله ويتركونه يسخن تحت أشعة الشمس حتى يجف ، كما كانوا يأكلون الأعشاب وجذور النباتات ويشربون ألبان البغال والجمال أو يصطادون الأسماك ويضعونها على الصخور الملتهبة الحارقة . (٥٨)

وعند تناول الطعام كان المسلمون يجلسون على سجادة على الأرض فليس لديهم منضدة ولا كراسي في منازلهم ويجلسون في دائرة ، ويأكلون بسرعة ولا يشربون الماء أثناء تناول الطعام بل بعده وخاصة ماء الورد ، ولا يستخدمون الملاعق أو الشوك أو السكاكين بل يأكلون بأيديهم (٥٩) ، أما مائدة الطعام فاحتوت على أنواع مختلفة من الأطعمة مثل ، كميات كبيرة من الحليب ومن الجبن المملح ويتناولون اللبن الحامض في كل أنواع الحساء لديهم ، كما اعتمدوا على اللحوم وكميات كبيرة من الخضراوات . (٦٠)

أما الشراب فكان ماء نهر النيل النقي الجيد المذاق ذو الرائحة الطيبة ، فكانوا يملئون الجرار والأواني باستمرار في منازلهم ، وقد «اعتادوا على تنقية المياه من الشوائب ، وذلك بوضع حفنة من ثمار اللوز في الماء بعد أن يدلكوها ويحكوها معاً في اتجاه معاكس ، ثم تدعك في شجرة النخيل فتعمل على تنقية المياه من الشوائب في خلال ثلاث ساعات .» (٦١)

اهتم الناس في تلك العصور اهتماما كبيراً بإعداد أماكن للنوم في منازلهم فصنعوا الأسرة من جريد النخيل ووضعوا عليها وسائد مريحة محشوة بالقطن . (٦٢) ، ولكنهم بصفة عامة سواء في مصر أو الشام ناموا داخل المنزل أو خارجه على المصاطب أو حتى فوق المنزل على الأسطح المنبسطة ، وخاصة في فصل الصيف للاستمتاع بالهواء وعند شروق الشمس ينزلون أسفل المنزل ويجلسون في الظل . (٦٣)

جرت العادة عند وفاة أحد الأشخاص أن يحمل المتوفى في تابوت وتشيع جنازته من منزلة إلى المسجد ، حيث يقوم أحد رجال الدين بإلباس المتوفى كفناً ويصلون عليه في المسجد ، ثم تخرج الجنازة من المسجد إلى مئذنة ويسير خلفه الرجال والنساء وهم يصيحون ويبكون

58) Fabri . the wandering . vol 2 part 2 . pp. 481 – 484 .

59) Casola . Pilgrimage to Jerusalem Jerusalem trans. by M. Margaret Newett . Manchester.1907. p. 256 . Baumgarten . The Travel of Martin Baumgarten . pp .478-479 .

٦٠) الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٥٦٤ : ٥٩٤ .

61) Wolff . How Many Miles? . p. 104 .

٦٢) هذا الوصف لتنقية مياه النيل من الشوائب يقترب إلى حد ما من قول المقرئ عن استخدام نوي الشمس ليكون بمثابة مصفاة للمياه في قاع الإناء الفخاري . أنظر : المقرئ ، الخطوط ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١١٦ .

63) Harff . The Pilgrimage of Arnold Von Harff . p. 112 . Dopp . Le Egypte . p. 108 . Fabri . the wandering . vol 1 part1 . p. 261 .

وينوحون على المتوفى .^(٦٤) ، وفي بيت لحم شاهد الرحالة فيلكس فابري filx fabri جنازة امرأة مسلمة يحملها الرجال على أكتافهم ويسير وراءها الرجال والنساء وهم يضعون أيديهم متشابكة على رؤوسهم ويصيحون ويبيكون بشدة .^(٦٥) ، ولو كان المتوفى غنياً أو من الأعيان فإنهم كانوا يرسلون بعد دفنه الكثير من الحماليين ومعهم الأغنام لذبحها وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين في القرافة .^(٦٦) ، كما كان من عادة الناس عند زيارة القبور أن تذهب النساء إلى المقابر حاملة معهن الرياحين والزهور ويقمن بوضعها حول القبور مساء يوم الخميس أو ظهر يوم الجمعة .^(٦٧) ، كما اعتادوا أن يأتي أقارب المتوفى إلى القبور أيام الجمع والأعياد ويجتمعون معاً ويوزعون الطعام على الفقراء الذين يأتون من كل الأنحاء يسارعون للحصول على قسط من الطعام والمال .^(٦٨) ، كما ذكر يوم جارتن أن سكان مدينة فوه كانوا في أحزانهم يلطخون أنفسهم بالروث والقذارة عندما يكون موتاهم^(٦٩)

بنى المسلمون مدافن خاصة بهم في مصر سميت القرافة ، وكان لأهل مصر والقاهرة قرافتان الأولى على سطح جبل المقطم يقال لها القرافة الصغرى والثانية في مصر يقال لها القرافة الكبرى^(٧٠) ، ولم يقتصر استخدام القرافة في تلك العصور على دفن الموتى وتشيد المقابر، بل أقيمت فيها البيوت والمساجد المزخرفة وفيها مصابيح مشتعلة^(٧١) وقد امتدح الرحالة وصف القرافة الصغرى ونظامها والحياة فيها ، حيث بنيت قراها أحواش عالية ومنخفضة يوضع فيها الموتى وكل فرد له حوش مستقل ، وفي الأحواش المنخفضة يدفنون الموتى، والأحواش العليا عبارة عن مساكن يجلس فيها أقارب المتوفى عند زيارة المقابر .^(٧٢) ولتلك القبور أبنية عالية عليها قباب جليلة ومزينة من الداخل بنقوش متنوعة وبرسوم وأرضيتها مغطاة بالرخام .^(٧٣) ، أما ابن بطوطة فقد وصفها بأنها «عظيمة الشأن وبينون فيها القباب الحسنة ويجعلون عليها الحوائط فتكون كالدور وبينون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسنة ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة» .^(٧٤) ، وفي بيت

٦٤ (ابن الحاج ، المدخل الي الشرع الشريف، ج ٣ ، ص ٢٥٥- ٢٥٦ : العسقلاني ، الحافظ بن حجر، إنباء القمر بأنباء العمر ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص ٢٤٩ : ابن تقيي بردي ، حوادث الدهور ، حررها وإيام بيير ، كاليفورنيا ، ١٩٣٠ م ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ : Harff .op.cit. p . ١١٢ .

65) Fabri , the wandering , vol 1 part 2 , p. 604 .

66)Frescobaldi . A Visit to the Holy Places. p. 41 .

. Dopp , Le Egypte , p. 35

٦٧ (ابن الحاج ، المدخل الي الشرع الشريف، ج ٣ ، ص ٢٧٨ :

68) Souriano , Treaties on the holy Land . pp. 192 193 . Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud . p . 51

69) Baumgarten . The Travel of Martin Baumgarten . p. 440 .

٧٠ (المقرئزي . الخطط ، ج ٤ ، ص ٣١٧ .

٧١ نفسه ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ :

Harff.op.cit. p. 118

72) Dopp , Le Egypte . pp . 34 - 35 .

٧٣ (الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٥٨٥ - ٥٧٦ .

٧٤ (ابن بطوطة ، عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ١٩٦٠م ، ص ٢٩

المقدس بظاهر المدينة مقابر للمسلمين عند البوابة الذهبية .^(٧٥) وفي أرسوف مقابر لليهود وأسفل جبل الكرمل وفي بيت المقدس مقابر أخرى لهم عند انحدار جبل الزيتون وجبل المعبد^(٧٦)

أما من ناحية النظافة فقد انتشر بناء الحمامات في مصر والشام والعالم الإسلامي بصورة واضحة ، وذلك لأن الحمامات لها أهمية خاصة في الحياة الإسلامية ، حيث تعد مكاناً للطهارة والنظافة ، وقد اهتم المسلمون بالنظافة التي هي أساس العبادات ، كما كانت تلك الحمامات مكاناً لاجتماع النساء والرجال كلا منهما على حدا لمناقشة بعض الأمور الحياتية الهامة وتداول الأخبار ونشرها ، ولذا يعتبر الحمام مصدراً لنقل المعلومات ، وتلك الحمامات كانت ذات ضرورة ملحة في الشرق بسبب الجو الحار في معظم بلاده ، ولذلك يستخدمها كل طبقات السكان من الجنسين كما نجد أن عدد الحمامات العامة وروعيتها وجمالها المعماري تتجاوز حدود ما رواه الرحالة .

وقد قصدوا الناس من مختلف الطبقات للاستحمام لكون الناس لم تألف تلك الأوقات الاستحمام في منازلهم^(٧٧) وذكر ابن الحاج « أن الواحد يشتري الدار أو يبنيتها نحو الألف ولا يعمل بها موضعاً للغسل أو الوضوء »^(٧٨) ، كما اقتضت الشريعة الإسلامية ألا يدخل الرجال المسجد إلا بعد الاغتسال والوضوء ، ولذلك كان يذهب أغلبهم إلى الحمامات ، وكانت هناك حمامات تابعة للمساجد يدخلها كثيراً من الأغنياء ، أما الفقراء فيغتسلون في الترع والقنوات^(٧٩) وقد اعتبر البعض أن كثرة الحمامات في المدن من مظاهر الترف والغنى وما يتبعه ذلك من الترفيه والتعظيم والرفاهية والراحة .

وقد شاهد بعض الرحالة تلك الحمامات في مصر والشام ، وذكروا أنه ليس ثمة حمامات تشبه حمامات مصر في جودتها ونظافتها ونظامها المعماري المشيد بفن هندسي بالغ الجودة^(٨٠) ، حتى إن بعضهم قد أحصى عدد حمامات القاهرة « فذكر ابن عبد الظاهر أن بالقاهرة عام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م حوالي ٨٠ حماماً »^(٨١) ، وفي عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ذكر جان

٧٥) الحنبلي ، القاضي أبو اليمن مجير الدين الحنبلي ، الأسس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٧٢ م ، ج ٢ ، ص ٦٣ ؛

Fabri , the wandering . vol 1 part 2 p. 460.

76) Adler , Jewish Travelers . p. 144 . 241 .

٧٧) رئيسة عبد الفتاح ، نابلس في العصر المملوكي ، فلسطين ١٩٩٩ م ، ص ١٦٢ ؛ محمد عدنان ، بحث في تاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٩٠ م ؛ ص ١٢٩ .

٧٨) ابن الحاج ، المدخل إلى الشرع الشريف ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

79) Langnon , Le Saint Voyage de Jehrusalem de Seigner de Angleur . paris. 1878 . p. 60.

٨٠) البغداد ، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ، رحلة عبد اللطيف البغدادى في مصر ، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ط ٢ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨ م ، ص ١١٤ ؛ الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٥٨٠ ؛

Adler . Jewish Travelers . p. 168.

٨١) ابن عبد الظاهر ، محي الدين ، الروضة البهية الزاهرة في خطط القاهرة المعزية ، تحقيق ايمن فؤاد السيد ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٦ م ، ص ١٠٢ .

تينو jean Thenaud أن بها «حوالي ١٠٠ ألف حمام»^(٨٢) ، أما الرحالة يوحنا الذي زار مصر في العصر العثماني ذكر «أن في القاهرة حوالي ١٠٠ حمام فقط للرجال والنساء»^(٨٣)

كانت النساء في تلك الحمامات تقمن بالاغتسال وإزالة الشعر والنظافة العامة ، كما قمن بالتخضيب بالحناء والزينة وتخرج من الحمام كأنها عروس مزينة عيونها بالكحل وفي يديها وقدميها الحناء ومرتدية أجمل الملابس وواضعة أطيب العطور^(٨٤) ، أما الرجال فذكر فون برندباخ von breydenpach أن الرجال المسلمين كانوا يستمتعون بشدة بدخول تلك الحمامات ، حيث وجد بها أشخاص متميزين قاموا بتدليك الجسم وتجديد النشاط مع وجود الماء الدافئ والبخار الذي يساعد على تفتح مسام الجلد^(٨٥) ، وذلك التدليك يتم بطريقة الشني والفرد للجسم لعدة مرات حتى تلين الأعضاء وبذلك يصبح المرء أكثر رشاقة وحيوية .
(٨٦)

وعن فائدة الحمام أيضا ذكر فليكس فابري filx Fabri أن الخادم في الحمام يقوم بتدليك المرء ودهنه بالزيت لأنهم يعالجون ضعف الأطراف في الحمام ، فإذا كان الإنسان يشعر بألم ما في أى موضع يقوم الخادم بتدليك مكان الألم ويضغط بشدة عليه حتى يتعافى من وجعه أو يسكن بعض الألم ولذلك فمن يعاني من آلام في فمه أو ساقه أو رقبته ويدلكها الخادم فإنها تزيل التقلص بسرعة ، و إذا كان الشخص يعاني من ضيق في التنفس كان الخادم يقوم بأخذ المريض ويمده على بلاط الحمام في الوسط إما على ظهره أو بطنه أو جنبه ، ثم يجلس الخادم فوقه ويتولى معالجة موضع الألم بلطف ، وذلك الأمر قد أدهش الرحالة ، ووجد أنها أسهل وأفضل طريقة للعلاج ، وتجذب كثير منهم مما يحدث في الحمام حيث وجده أحسن مكان لعلاج كثير من الأمراض في وقت ضئيل جداً وأفضل من الذهاب إلى الينابيع الحارة التي يتكلف الوصول إليها الجهد والوقت والمال الكثير.^(٨٧)

اعتنت السلطات المملوكية بأمر تلك الحمامات وتنظيم الدخول فيها وتوفير سبل الأمان والراحة ، ومن ثم كان هناك موظف يشرف على تلك الحمامات سمي المحتسب وكان من ضمن مهامه أن « يأمر ضامن الحمام أي الشخص المسئول عن نظافته بكنسه وغسله بالماء

82)Schefer . Le Voyage de Jean Thenaud . p . 36 .

83)Wolff . How Many Miles to Babylon ? p . 131 .

84)L.O.C.

٨٥) جومار . وصف مدينة القاهرة وقلة الجبل ، ترجمة أيمن فؤاد السيد ، القاهرة ، ١٩٨٨م القلعة ، ص ٨٥ :

Larrivaz . Le Saints Peregrinations de Bernard . p . 61 .

86) Harff . The Pilgrimage of Arnold Von Harff . p . 114 .

87)Fabri . the wandering . vol 2 part 2 . p . 440 .

الطاهر غير ماء الغسيل كل يوم مرات ، وكذلك البلاط بالأشياء الخشنة لئلا يتعلق به الأوساخ والصابون فينزلق الناس عليه ، وكذلك يغسل الخزانة من القاذورات المجتمعة فيها ، وكذلك الفساقى والقذور من الأوساخ المجتمعة من المجاري كل شهر مرة لأنها إذا تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها من ناحية الطعم والرائحة ، كما يقوم بتبخير الحمام بالفحم واللبان في كل يوم مرتين ، وخاصة عندما يكنسه ويغسله ، كما يأمر ضامن الحمام أيضاً أن يجعل عنده مآزر يؤجرها ، أو يعيرها لمن يحتاجها فإن الغرباء والفقراء يحتاجون إلى ذلك»^(٨٨)

أما في بلاد الشام فلم يذكر المؤرخون المعاصرون أو الرحالة في العصور الوسطى أعداد الحمامات في بلاد الشام ولا أسماءها ، ولكن ابن شاهين ذكر حمامات القدس فقال : « إنه كان بها كثير من الحمامات وبها مدارس كثيرة وخانات وحمامات وعمائر حسنة » ، وعن دمشق قال : « إن بها مدارس وأماكن مباركة وشوارع وأسواق وحمامات وبساتين وعمائر تحير الواصف »^(٨٩) ، أما العمري فذكر أنه في القدس في أوائل العصر المملوكي أيام تولي الأمير تنكز نائباً للشام عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م قام ببناء حمامين جليلين بها وكان الناس في أشد الحاجة إليهما لأنه لم يكن بها حمامات جيدة .^(٩٠) أحدهما كان يوجد في باب القطنين أحد أبواب المسجد الأقصى والمعروف بالحمام الجديد^(٩١) ، وفي نابلس التي اشتهرت بصناعة الصابون ساهم ذلك في كثرة الحمامات بها وجودتها وما تقدمه من خدمات للناس لذلك لا تدهش عندما يصفها شيخ الربوة بأن حمامات نابلس طيبة^(٩٢)

كما كان هناك تخصص في الحمامات بمعنى أنه هناك حمام للرجال وآخر للنساء ، مثل حمام الساباط في القاهرة وكان في القصر الصغير وسمي بعد ذلك أيام المقریزی باسم حمام المارستان المنصوري ، حيث كان يدخله الرجال بالنهار وتعقبهم النساء فيما بعد .^(٩٣) وكذلك حمام خوند بجوار رحبة خوند وكان يدخله عامة الرجال في أوائل النهار ثم تعقبهم النساء بعد إلى أن هدمه الأمير صلاح الدين محمد بأمر السلطان وذلك في رجب عام ٨٢٤ هـ ، وأدخله في داره .^(٩٤) وكذلك يوضح فيليكس فابري filx fabri أن في بيت المقدس لا يجتمع النساء

٨٨ (ابن الأخوة ، معالم القرية ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

٨٩ (ابن شاهين ، غرس الدين بن خليل ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، صححه بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م ، ص ٢٣ ، ١٥٤ .

٩٠ (العمري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج ٢ ، تحقيق دوروتيا كرافولسكي ، ط ١ ، بيروت

١٩٨٦ م ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

٩١ (الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

٩٢ (رئيسة عبد الفتاح ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

٩٣ (المقریزی ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٢٩ : ١٣١ .

٩٤ (المقریزی ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

والرجال معا في حمام واحد بل لكل منهما حمام خاص به ولا يسمحون لليهود بدخوله . (٩٥)

أما عن وصف الحمامات العامة في ذلك العصر وتصميمها، فلم تحتفظ المصادر الملكية المعاصرة إلا بالقليل عن ذلك الوصف ويمكن وصفها وصفاً بسيطاً من خلال نصوص الرحالة العرب أو الأجانب الذين اهتموا بالسرد والتفصيل لكل الأمور والمشاهدات العجيبة والجميلة التي رأوها . « فالحمام عبارة عن بناء تتوسط واجهته بوابة ضيقة ذات زخارف أو أحياناً بوابتان إحدهما للرجال والأخرى للنساء والأبواب مطعمة بالعاج والأبنوس ومزينة بالرسوم والزخارف ، وداخل الحمام عدة غرف تتراوح من ست إلى سبع غرف دون فراش ، ولكنها مبلطة الأرضية والجدران بالرخام الأبيض الناعم ومن ضمن الغرف غرفة ساخنة (٩٦) ، وتلك الغرف تشبه المقاصير يستحم فيها الأشخاص عراة ، ثم يرتدون ملابسهم بعد الاستحمام وتوجد الفوط النظيفة الموضوعة في تلك المقاصير حيث يلف الناس أجسامهم . (٩٧) ، وأمامها بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال والغرفة نفسها تشبه برجاً مربعاً وفوقها قبة ليس لها سقف بل فتحات كبيرة مغلقة بالزجاج الملون لينفذ منها الضوء القليل الباهت ، ولكنه كاف للإضاءة وفي أحد الأماكن يوجد موقد نار تحت البلاط ، ومن خلاله يسخن رخام البلاط الأرضي ، ويحمل الماء الذي يجري خلال قنوات محفورة في الغرفة كلها تحدث سخونة ، ومن جانب آخر تجري مياه باردة وتسمى تلك القنوات بالنافورات ، وتملئ بالماء الساخن عبر أنابيب تصب فيها وهكذا فإن البخار الناتج عن المياه الساخنة يدفع الحجر » (٩٨)

وصف الرحالة المسلم البغدادي موقد النار في الحمام « بأنه يسمى بيت النار وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار ، ويصف على أفاريزها أربعة قدور رصاص وتتصل تلك القدور قرب أعاليها بنجار من أنابيب فيدخل الماء من مجرى البئر إلى فسقية عظيمة ، ثم منها إلى القدر الأول فيكون فيها بارداً ، ثم يجري منها إلى الثاني فيسخن قليلاً ، ثم إلى الثالث فيسخن أكثر ، ثم إلى الرابعة فيزداد سخونة ، ثم يخرج إلى مجاري الحمام فلا يزال الماء جارياً وحراراً بأيسر كلفة وأهون سعي وأقصر وقت وكانوا يفرشون أرضية الموقد بنحو خمسين إردباً ملحاً لأن الملح من خصائصه حفظ الحرارة (٩٩)

95) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 441 .

96) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 114 . Schefer , Le Voyage de Jean Thénau , p. 36 .

97) Prescott , once to sinai , pp . 31-32 .

98) Fabri , the wandering , vol 2part 2 , pp . 437 - 439 .

٩٩) البغدادي ، رحلة البغدادي ، ص ١١٥ - ١١٦ .

بالإضافة إلى الحمامات العامة هناك حمامات طبيعية بها مياه معدنية تساعد على العلاج من الأمراض والأوجاع ، وأهمها ما يوجد في أرض الشام مثل « بحيرة طبرية » حيث فيها عيون ملحة حارة ، وقد بنيت عليها حمامات ولا تحتاج إلى وقود وتجري فيها المياه الساخنة ليلاً ونهاراً وبقرها حمام يغتسل فيه المرضى .^(١٠٠) ، وعن الأهمية والفائدة الصحية لحمام طبرية قال الهروي « إنها من عجائب الدنيا وهي عمارة قديمة وعبارة عن هيك يخرج الماء من صوره ، وقد كان يخرج الماء من اثني عشر موضعاً وكل عين مخصوصة بمرض معين إذا اغتسل منها صاحب المرض برى منه والماء أشد حرارة في الصيف ، وأصفى ما يكون وأطيب رائحة وذلك الموضع يقصده أصحاب الأمراض والعاهات والزمني والرياح فيغتسلون فيه وعيونه تصب في موطن كبير حسن يسبح الناس فيه . »^(١٠١) ، وكذلك عين سلوان فمن يستحم من ماء تلك العين يشفى مما ألم به من الأمراض المزمنة .^(١٠٢) ، وهكذا كان الحمام في العصور الوسطى ذات طابع خاص في الشكل المعماري الهندسي وفي أهميته وفائدته الصحية والعلاجية وكذلك أهميته الاجتماعية كمقر لاجتماع الناس ونقل الأخبار وسرد القصص والحكايات .

شاهد الرحالة الغربيون مدى اهتمام السكان في الدولة المملوكية بالترفيه والبحث عن وسائل للتسلية والتنزه وخاصة أهل مصر ، حيث غلبت عليهم روح المرح والتسلية والفرح حتى في الأوقات الصعبة ، ولم يفقد المصريون روح المرح والدعابة في كل وقت ولا شك أن الترفيه والتسلية أمر ضروري لكل إنسان ، وربما كان الترفيه وسيلة لتحمل المصاعب والتغلب على المشاكل ، ولكل شعب وسائل للترفيه خاصة به تتفق مع ظروفه المادية والاجتماعية وتتلاءم مع عاداته وتقاليده وقد عرف الناس وال سلاطين أنواعاً وطرقاً متعددة للتسلية والتمتع بالحياة كل وفقاً لإمكانياته وحياته .

فقد روى الرحالة فيلكس فابري filx fabri والذي زار مدينة القاهرة عام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣ م « أن منزل كبير التراجمة الذي أقام عنده كان يوجد به مجموعة من الطيور والحيوانات النادرة الأليفة والمتوحشة مثل ، النعام والبيغاوات والأسود والديبة في فناء المنزل ، كما قدم بعض المصريين إلى داخل المنزل وقدموا بعض الألعاب المسلية والحيل مستخدمين الديبة والزراف

١٠٠ (العمري ، مسالك الأبصار ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧٥ : بورخارد ، وصف الأراضي المقدسة ، ترجمة سعيد البشاوي ، عمان ، ١٩٩٥ م ، ص ٩١ .

Adler . Jewish Travlers . p. 146 . Luodolph . Description of the Holy land . p. 127 .

١٠١ (أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي ، الإشارات لمعرفة الزيارات ، تحقيق علي عمر ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م ، ص ٢٨ ، زكريا بن محمد ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ب . ت . ص ١٦٣ .

١٠٢ (ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة ، يحي الخشاب ، الهيئة العامة ، ١٩٩٣ م ، ص ٦٨ .

والأسود في تأدية بعض الألعاب المتنوعة كأنهم سيرك حديث » ^(١٠٣) كما حدثنا الرحالة عن رؤيته لبعض الحيوانات في القاهرة قرب القلعة والتي اعتبروها غريبة وعجيبة في ذلك العصر لأنهم لم يعتادوا على رؤيتها في بلادهم مثل الزراف والفيلة كما كانوا يضعون تلك الحيوانات في مكان محدد يشبه حديقة الحيوان وهناك شخص مسئول عن رعايتها ونظافتها وتدريبها للقيام ببعض الألعاب المسلية والممتعة ، أما الرحالة الألماني السير لانجلير seigneur de angleur فقد أدهش عند رؤيته لسته أفيال مختلفة في الحجم ، وكذلك شاهد خمس زرافات غريبة الشكل . ^(١٠٤)

يبدو أن تلك الحيوانات كانت متواجدة في مكان عام يشاهده الناس من المصريين أو الغرباء ، فالرحالة بيرو طافور ذكر أنه عقب زيارته للأهرامات ذهب لمشاهدة المكان الذي كانوا يحتفظون فيه بالفيلة فقال : « رأينا منها سبعة و لونها أسود وحجمها أكبر من حجم الجمل ويظهر أن تلك الحيوانات ذكية جداً فهي مدربة على القيام بالحيل والألعاب وتعتمد في بعض الأحيان علي ملء خراطيمها بالماء وترش به أي شخص أرادت ، كما أنها تلعب بالرمح وتقذفه في الجو ثم تمسكه ، كما تقوم بألعاب أخرى كثيرة ، فإذا كان الجو حاراً أخذها القوم عند الفجر ودفعوها إلى النهر لتبرد وإلا عجزت عن كبح نفسها وجلدها سميك جداً ، وإذا جرحت وضعوها حيث تشرق الشمس عليه فتبرأ في اليوم التالي ، ويحمل سائقوها شوكة حديدية مثبتة إلى مدارة يضربونها بها خلف أذنيها ويوجهونها متى أرادوا ذلك » ^(١٠٥) ، وقد اهتم الرحالة أيضاً بوصف تلك الحيوانات مثل الزراف والفيلة وصفاً دقيقاً من ناحية الشكل والحجم واللون وطريقتها في الأكل والشرب وأنواع الطعام التي تأكله ومعيشتها . ^(١٠٦) ، وذلك يدل على دهشة وإعجاب الرحالة الأوروبيين بتلك الحيوانات العجيبة التي لم يعرفوها ولم يشاهدوها من قبل في بلادهم أو في بلاد أخرى إلا في مصر والشام في ذلك العصر .

كذلك استخدم أهل القاهرة كثيراً من أنواع الحيوانات بعد تدريبها على الإتيان بكثير من الحركات والألعاب المسلية المضحكة وقد أشار إلي ذلك الرحالة المغربي العياشي الذي زار المدينة عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠١م ودون ما رآه خارج القلعة بقوله : « وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القروء ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب ... وبالجمل فآهل مصر لهم ذكاء

103) Margoliouth , Cairo , Jerusalem and Damascus , London , 1907 , p. 160 .

104) Langnon .Le saint Voyage , pp .61-63 , Dopp , Le Caire , tome 24 , p. 116 .

١٠٥ (بيرو طافور ، رحلة طافور ، ص ٧٢ - ٧٣

.Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp . 48 -49

١٠٦ (بيرو طافور ، رحلة طافور ، ص ٧٢ - ٧٣

زايد وحيل غريبة قد سخر لهم أنواع الحيوانات فقليل من الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرًا^(١٠٧)

تلك الحيوانات مثل الفيلة والزراف والدببة والأسود لم توجد أساساً في البيئة المصرية بل كانت تجلب من بلاد أفريقيا وآسيا فمثلاً ، « كان الفيل يؤتى به من بلاد النوبة بعد أن يقوم أهلها باصطياده ويحملونه في مركب إلى الديار المصرية ضمن الجزية التي يدفعها ملك النوبة للسلطان المملوكي وكانوا ينقلونه من بلاد الهند والسند وسرنديب والحبشة . »^(١٠٨) ، أو يصل إلى مصر كهدايا من الملوك الآخرين ، ففي عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وصلت هدية نفيسة من صاحب اليمن إلى السلطان الظاهر بيبرس كان فيها حمار وحشي وفيل وأسود وخيول .^(١٠٩) ، وفي عام ٦٧٢ هـ / ٢٧٢ م وصلت هدية من ملك الحبشة عبارة عن سباع سود^(١١٠) ، كما أرسل صاحب دهلك عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٥ م هدية تحتوي على فيل وزرافة .^(١١١) ، أما في سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م فقد « حضر إلى السلطان فيل صغير من بلاد الحبشة فلما طلع إلى السلطان رجت القاهرة وكانت الأفيال قد انقطعت عن مصر نحواً من أربعين عاماً حتى نسيها الناس فصاروا يعجبون منه ثم حضر بعده فيل آخر وثالث »^(١١٢) .

كانت ساحة الأزبكية مقراً للهو واللعب والتسلية ، حيث كان يجتمع فيها سكان القاهرة بعد صلاة الجمعة والخطبة هذا بالإضافة إلى أنه كان يوجد بتلك الساحة الملاهي ومواخير النساء ، وأجتمعت فيها أيضاً العديد من المشعوذين الذين قاموا بترقيص الجمال والحمير والكلاب واستخدام العصافير للتسلية ، كما كان فيها المتبارزون بالسيف والترس وبالعصا ، وآخرون ينشدون أمجاد المعارك بين العرب والمصريين إثر فتح مصر^(١١٣)

كذلك حرص العامة أيضاً على الخروج إلى المنتزهات والملاهي وقضاء بعض الوقت وخاصة في فصل الصيف على نهر النيل حيث الحدائق والبرك والمنتزهات ، وأهم تلك الأماكن على نهر النيل هي المنطقة الواقعة بين بولاق ومصر العتيقة والتي تسمى جزيرة الروضة والتي

(١٠٧) علي السيد علي ، « القاهرة في عيون الرحالة الأوربيين في القرنين ١٤ ، ١٥ » : مجلة الفكر العربي ، العدد ١٢ ، ١٩٨٨ م ، ص ٧٢ .
(١٠٨) النوبري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة ، الهيئة العامة ، ١٩٩٠ م ، ج ٩ ، ص ٣٠٦ : المقريري ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٧ : ابن أيك الدوادري ، كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء الثامن الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١ م ، ج ٨ ، ص ١٨٥ .

(١٠٩) ابن تقي بريدي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤١ : القلقشندي ، صبح الأعشي ، ج ٥ ، ص ٣١ .
(١١٠) ابن أيك ، كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٧٥ : الفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد والدرر الفريد ، نشر Blachet ، ج ٢ ، ١٩١٩ م ، ص ٢٢٢ .
(١١١) الصيرفي ، علي بن داود بن إبراهيم ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣ م ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .
- دهلك : جزيرة في البحر الأحمر قرب الحبشة بينها وبين الحبشة مسيرة نصف يوم في البحر وطول هذه الجزيرة مسيرة يومين وحولها ٣٠٠ جزيرة مغمورة بالمسلمين ومعها يحمل العبيد والإماء إلى سائر الأفاق ، انظر ، الحميري ، الروض المعطار ، ص ٣٢٢ .

(١١٢) ابن إلياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٨٧ - ٢٠٦ .

(١١٣) الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٥٨٢ - ٥٨٥ .

وصفها ابن بطوطة بأنها « مكان للنزهة والتفرج »^(١١٤) ، وتلك المنطقة كانت متنزهاً ملوكياً وسكناً للناس إلى أن تسلطن الصالح نجم الدين أيوب فأنشأ بالروضة قلعة واتخذها مقراً ، وعند حفر أساسها عام ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠م تهدمت بعض القصور والمساجد حولها ، وترك الناس مساكنهم التي كانت بها ، وتم بناء القلعة ، وبعد زوال دولة الأيوبيين أمر السلطان أبيك بهدمها وطمع الأمراء في القلعة وأخذوا منها السقوف والأخشاب والرخام ثم ، اهتم بها السلطان الظاهر بيبرس وفي عهد الملك المنصور قلاوون سمح للناس بالبناء فيها عام ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م فبنيت الدور والمساكن الجميلة المطلة على النيل وعادت الروضة بعد هدم القلعة متنزهاً واشتملت على دور كثيرة وبساتين عدة ومساجد .^(١١٥)

كان يذهب إليها سكان القاهرة للتمتع بالحدائق والأشجار والزهور والحشائش على شواطئ النيل ، أو استئجار القوارب والمراكب المزينة والمزخرفة بأجمل وأبدع الزينة فضلاً عن الأعداد الكبيرة من التجار والأعيان الذين يخرجون في المواسم والمناسبات إلى النيل في قوارب تملأ سطح الماء .^(١١٦) ، وفي منطقة بولاق أيضاً كان الناس يخرجون يوم السبت للتنزه والاستمتاع بأكل السمك في الهواء الطلق وسط الحدائق الطبيعية .^(١١٧) ، وقد تعجب الرحالة فريسكو بالدي frescobaldi من مبالغة الناس في الترفيه والتنزه « حيث كانوا يذهبون للتنزه كل يوم ومعهم الطعام والشراب وماء الورد وأشياء أخرى وتكلف ذلك حوالي ٤٠٠ دوكة ذهبية كل يوم . »^(١١٨) ، ورأى فون هارف حول الإسكندرية منازل صيفية بها العديد من الحدائق الرائعة وتتمو فيها أنواع عديدة من الفواكه الناضجة مثل البرتقال والليمون والبلح والتين والموز وأنواع أخرى طيبة المذاق ويعيش فيها الناس في فترة الصيف وفي وقت الأجازات وهي مبنية على الطراز المعماري الإسلامي .^(١١٩)

ولا يفوتنا هنا عند الحديث عن نهر النيل وشواطئه الرائعة أن نذكر ما جاء به الرحالة البلوي المغربي والذي أعجب كثيراً بالتنزه في نهر النيل وتمتع بمناظره الخلابة حيث قال « ركبت بحر نيلها العذب في جملة وافرة من الصحب أخلاقهم أعذب من مائة وشمائلم أرق من صفائه وسرنا في متنزهات تلك الأفطار الرفيعة إلى أن قضينا أجمل الأوقات وتمتعنا بتلك المنازل المليئة بالحدائق الغضة والنسيم المعطار ... وقد أحصيت المراكب الجارية في ذلك

(١١٤) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ص ٤٠ .

(١١٥) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٩-٢٤٢ : المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٧-٣٠٠ .

(١١٦) Ghistele. Voyage en Egypte (1842 - 1483) , trans by . Bauwens Preaux , Bruxelles , 1975 , p.66,75

(١١٧) Wolff , How Many Miles. p. 142 .

(١١٨) Frescobaldi . . A Visit to the Holy Places. p. 176 .

(١١٩) Ibid. p. 96 . Harff . The Pilgrimage of Arnold Von Harff. p. 94 .

النيل فوصلت إلى أكثر من مائة ألف مركب ما عدا الزوارق الصغار للصيادين والركاب» (١٢٠).

أما الأطفال الصغار فيبدوا أنهم كانوا يستمتعون بطريقة مختلفة على شواطئ النيل ، حيث روي فريسكو بالدي frescobaldi « أنه شاهد عدداً كبيراً من الصبية من البنين والبنات واقفين على شاطئ النيل وهم شبه عراه يطلبون من كل من يبحر في النيل أن يلقي لهم بعض حبات الليمون في الماء حتى يتسابقوا في الغطس والسباحة للوصول إليها وكانت تلك هي طريقتهم لقضاء الوقت في المرح» (١٢١).

كما كان الناس في مدينة بيت المقدس يتجولون غرب المدينة في الصيف حيث المساحات الفسيحة المزروعة بالحدائق والزهور فكان المكان منتزهاً عاماً لهم . (١٢٢) ، كما ذكر الراهب بورخارد أن السهول الواقعة قرب مدينة فيدار في فلسطين كانت مقراً للتجمع والتنزه حيث اعتاد المسلمون الاجتماع حول عين فيالي الرائعة في الصيف بانتظام بسبب جمال المكان وكانوا يقومون بنصب الخيام ذات الألوان المختلفة . (١٢٣) ، وذكر ميشولم Meshullam أيضاً أن اليهود كانوا يتنزهون عند سهل millo قرب بيت المقدس غرب وادي يوشفات حيث يتجولون ويتمتعون بالطبيعة . (١٢٤) وروي يوم جارتن Baumgarten عن وسائل التسلية والترفيه في بيت المقدس « أنه جرت العادة أن يخرج أبناء المدينة إلى بركة سلوان حيث مارسوا رياضة صيد الطيور وقد شاهد ذلك بنفسه ووجد أنهم يصطادونها بطريقة مختلفة عن بلاده في أوروبا حيث أنهم لا يصطادون الطيور عن طريق الصقور والشاهين ، ولكن عن طريق المياه التي تصب على الصخور ، ولأن تلك البلاد جافة جداً وحارة ومياهها قليلة فإن الطيور تكون مستعدة للهبوط بسرعة على نبع ماء بسبب شدة العطش وقبل أن تصل الطيور إلى الماء للشرب تكون قد وقعت في أيديهم عن طريق الشراك والشباك المنصوبة والمعدة لها من أجل ذلك . (١٢٥)

انتشرت خارج مدينة دمشق أيضاً الحدائق والحقول البهيجة والمزروعة بكل أنواع الفواكه والزهور والمحاصيل وفيها تنزه الرجال والنساء وتمتعوا بالطبيعة الخلابة والهواء العليل (١٢٦) ، ومن متنزهات دمشق « متنزه الجبهة » وهي أرض مربعة مساحتها حوالي فدانين عليها سقائف تظلها بدون طين بين شجر الصفصاف والجوز ومفروشة بالحصير وتحيط بها

(١٢٠) البلوي المغربي ، خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن خالد البلوي ، تاج المفروق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن السائح ، الدار البيضاء ، ١٩٧٠م ، ص ٢١٧- ٢١٨ .

121) Frescobaldi . A Visit to the Holy Places. p. 44 .

Souriano , Treaties on the holy Land . p. 42

(١٢٢) الحنيلي ، الأسن الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٩ ؛

١٢٣ (بورخارد ، وصف الأراضي المقدسة ، ص ٧٤ .

124) Adler . Jewish Travelers p. 192 .

125) Baumgarten . The Travel of Martin Baumgarten p. 463 .

126) Frescobaldi.op.cit. p. 181.

جداول الماء من أربع جهات مع البرك والبحيرات ، وبها حوانيت الطعام والشراب ومقاصف في خدمة الناس ، وكذلك « متنزه قطية » على نهر بردي وبه أيضاً حوانيت الفرش والملابس والأطعمة ، وكذلك «متنزه البهنسية » وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار وبه عيون ماء جارية وبه سوق حمام الزمرد ، وكان مقصداً للرؤساء والأعيان وغيرهم . (١٢٧) ، وهكذا تميز أهل دمشق بالميل نحو اللعب واللهو وخاصة يوم السبت حيث لا يبقى السيد ولا العبد ولا الجارية إلا وخرجوا للتسلية والترفيه ، ومع بداية اليوم يجتمع الجميع ، أما كبار رجال الدولة والأعيان فكانوا يمضون في البساتين ويقضون أوقاتهم في القصور والأماكن الجميلة ، أما سائر الناس فإلى الميدان الأخضر المحاط بالزروع والنباتات الخضراء صيفاً وشتاء وفيه الجداول المائية ويظلون على تلك الحال حتى نهاية اليوم . (١٢٨)

ومن المشاهدات الاجتماعية الأخرى التي ذكرها بعض الرحالة طرق العلاج لبعض الأمراض فمنها ما هو نافع ومفيد ومنها ما هو خرافة ولا يتناسب مع الطب والعلم وذلك وفقاً لطبيعة الشعب في ذلك العصر ، فذكر الرحالة بيلوتي الكريتي Piloti de Crete ” أن ماء النيل في حد ذاته يعتبر علاجاً قوياً لكثير من الأمراض وهو الطريقة المفيدة للحماية والوقاية عامة حيث إن نقاءه ومذاقه يساعد على هضم الطعام داخل المعدة وتجعل المرء مفتوح الشهية ولم يسبق أن شعر أحد من قبل بالآلام من جراء شربه حتى أن هناك بعض الناس يأتون إلى مصر خصيصاً لأجل شرب ماء النيل حتى يتم شفاؤهم من الأمراض . (١٢٩)

تعرض المسافرون في صحراء سيناء وغزة لخطر الحشرات أهمها حشرة تسمى قملة فرعون وهي حشرة سامة يبلغ طولها ضعف طول الذبابة ولونها أحمر . (١٣٠) ، وتلدغ الشخص وتسبب ورماً مريعاً وتقيحاً في الجلد . (١٣١) ، وكان العلاج الوحيد لتلك الأورام هو استخدام عصير الليمون مكان الورم ، وقد نصح المصريون كل من يسافر في الصحراء باستخدامه (١٣٢) ، في حين اعتمد فون هارف على عصير التفاح لعلاج لدغة قملة فرعون . (١٣٣)

استخدم البلسم (البلسان) في علاج مرضى العيون ، حيث كان يوضع فيها أربع نقط أو خمس ، كما استخدم في الحفاظ على أجساد القديسين لأنه جرى دهنهم بالبلسم ، وكذلك

١٢٧) أبي البقاء محمد عبد الله محمد البدرى المصري الدمشقي ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، القاهرة . ١٣٤١ هـ . ص ٧٧ - ٨٠ : انظر أيضاً ، عبد القادر الريحاني ، مدينة دمشق و تراثها ، دمشق . ١٩٦٩ م . ص ٧٥ .

١٢٨) القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد . دار صادر ، بيروت . ١٩٧٩ م . ص ١٩١ .

129) Dopp . Le Egypte . p. 7 .

130) Adler , Jewish Traveler . p. 178 .

131) Ibid . p. 186 . Ghistele . Voyage en Egypte . p. 11 .

132) Adler . Ibid . Ghistel . Ibid . Souriano . Treaties on the holy Land . p. 186 .

133) Harff . The Pilgrimage of Arnold Von Harf . p. 184 .

في شفاء الجروح الجديدة فإذا مسحت بنقطة بلسم ووضع على ريشة يعود على الفور الجلد سليماً ، وساعد كذلك في علاج الكسور والتئام الجروح بسرعة من الداخل وهو مفيد للحفاظ على اللحوم حتى لا تفسد .^(١٣٤) ، وأحياناً استخدم البلسم في تحنيط الجثث وعلاج بعض الجروح ، وكذلك استخدمه الصيادلة ، كما كان له وظيفة دينية حيث استخدم في تصنيع الزيت المقدس وفي التعميد لدى الأقباط ولذلك اعتبر من الكنوز الملكية وقام السلطان بنفسه بتوزيعه وتحديد سعره .^(١٣٥) ، كما استخدم المسلمون دهان البلسان في علاج كثير من الأمراض مثل اضطرابات الجهاز التنفسي وأمراض الأنف واللمباجو وآلام المفاصل ، بينما استخدمه الغربيون على نطاق واسع في علاج الصداع والتسمم وآلام الأسنان ، ولذلك فإن كل جزء من ذلك النبات ذو قيمة عالية وفائدة كبيرة ولذلك أيضاً فهو غالي الثمن .^(١٣٦)

فضلاً عن الفائدة العلاجية من مخلفات التماسيح ، والتي ذكرها فيليكس فابري Felix fabri فقال ” إنه كان يصنع منه كريم للوجه من روث التمساح والذي استخدمته النساء بكثرة لإزالة التجاعيد بالوجه وتحسين البشرة كذلك استخدم جلده في أغراض عديدة ولذلك كان الجلد غالي الثمن .“^(١٣٧) ، كذلك ذكر المقرئزي بعض الاستخدامات الطبية التي كانت معروفة وشائعة في ذلك العصر حيث قال ” وإذا عض التمساح إنساناً فوضع على العضة شحم التمساح برىء وشفي من ساعته ومرارته يكحل بها للبياض في العين فيذهب وكبد به يخرب بها المجنون فيبرأ وذيل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم وإن قلعت عيناه وهو حي وعلق على من به جذام أوقفه ... وشحمه إذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكلبتين وشحمه إذا قطر بعد أن يذاب في الأذن الوجعة نفعا وإذا أدمن في تقطيره في الأذن نفع من الصم وإذا دهن به صاحب حمى الربع سكنت عنه “^(١٣٨)

وهناك خرافات قديمة فعلها الناس اعتقاداً في أهميتها من الناحية العلاجية ، حيث كان يقوم المسيحيون الشرقيون والمسلمون بقطع أجزاء من جبل الصلب والصخور الأخرى من أجل العلاج والدواء ، حيث قالوا أنه لو كان الشخص مريضاً بالحمى يمكن أن يشفى منها بشرب الخمر والماء مع قطعة من الصخور ومن عنده صداع يمكن أن يخلق شعر رأسه ويضعه حارس الدير على المكان الذي وضع عليه الصلب وسوف يشفى ، وعندما يعاني الشخص من ألم الأسنان يستخدم الحجارة ويضع بينها شعر ذقته ، ولذلك رأى الرحالة فابري Fabri

134) Luodolph. Description of the Holy land . p. 70 .

135) Dopp . Le Egypte . pp . 31-32 .

136) Prescott . Once to sinai . p. 120 .

137) Fabri . Voyage en Egypte . tome 3 . p. 940 .

١٣٨) المقرئزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٧-١٠٨ .

خصلات كثيرة من الشعر بين الشقوق والتصدعات في الصخور .^(١٣٩) كما روي سوريانو Souriano أنه كانت توجد بداخلها قطع من الحجر أو الرمل وتلك الحجارة كانت تسمى أحجار الحمل حيث كانت المرأة التي لا يستمر حملها ويحدث لها إجهاض مستمر يجب عليها أن تحمل تلك الأحجار وسوف يستمر حملها ويؤكد سوريانو Souriano أنه قد جرب تلك البدعة والخرافة وقد نجحت عندما حضرت إليه سيدة أجنبية وكانت دائمة الإجهاض ومؤمنة ومخلصة لجماعة الرهبان الفرنسيين وقد حملت تلك الأحجار واستمر حملها وأنجبت الكثير من الأطفال بنات وبنين ، كذلك روي أن تلك الأحجار لها تأثير على نمو الأشجار فهي إذا وضعت فوق الشجرة فلا يسقط ثمرها وإذا كانت الشجرة غير مثمرة أثمرت وازدهرت^(١٤٠)

نخلص مما سبق أن الرحالة الأوربيين قد أهتموا ببعض المشاهدات الاجتماعية مثل ملاحظتهم عن اهتمام السكان بوسائل الترفيه والتسلية كوسيلة للتخلص من الهموم ومشاكل الحياة اليومية المستمرة وتفننوا في ابتكار طرق للتسلية واتخذوا بعض الأماكن مراكزاً للهو والترفيه مثل منطقة القرافة و الأزبكية وغيرها ، هذا ولم تخل المدن المصرية والشامية من وجود الحمامات العامة التي كانت أساس الحياة اليومية حيث لم يهتم الناس بإنشاء حمامات في منازلهم بالإضافة إلى الحمامات الطبيعية الحارة مثل بحيرة طبرية والتي كانت مكان للعلاج الطبيعي، كما كان للمرأة دور بارز وهام في المجتمع وتمتعت بحرية التجول والترحال طوال اليوم إلى السوق وزيارة الأقارب وعملت بالتجارة ، وعاب كثير من الرحالة والفقهاء المعاصرون على تلك الحرية مما جعل الرحالة يصفون بعضهن بالمجون والخلاعة ، ولكنهم أغفلوا شيء هام وهو أن المرأة المسلمة لم تكن على هذا الوصف السيء ، فقد كن أكثر التزاماً فليس وجود بعض النسوة غير صالحات أن يعمم ذلك على بقية المسلمات ولا ننسى أن هؤلاء الرحالة إما مسيحيين أو يهود ومنهم رهبان متزمتون ويحملون في قلوبهم وعقولهم تصوراً سيئاً عن الإسلام والمسلمين .

139) Fabri ,The Wandering , vol 1 part 2 , p. 363 .

140) Souriano . Treaties on the holy Land , p. 233 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا :المصادر الأجنبية :-

- Adler,(E.N), Jewish Travelers , 1 ed , , London , 1930.
- Baumgarten ,(M.) The Travel of Martin Baumgarten through Egypt ,Syria ,Palestine , London , N.D
- Casola , Pilgrimage to Jerusalem trans. by M. Margaret Newett , Manchester,1907
- Le'Egypte au commencement du quinzieme siecle, le Caire , 1950.
- Fabri ,(F.), The book of the Wandering of Felix Fabri (1480-1483 A.D),2vol,p.p.t.s,vol 7-10, trans. by Aubrey Stewart, London ,1896
- Frescobaldi , A visit to the Holy Places trans . by Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948
- Ghistele, Voyage en Egypte(1842 - 1483), trans by , Bauwens Preaux , Bruxelles , 1975 Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, trans by Letts Malcolm ,London , 1946
- Langnon, Le Saint Voyage de Jehrusalem de Seigner de Angleur ,paris , 1878
- Larrivaz ,(F.) Le Saints Peregrinations de Bernard de Breydenpah 1483,Le Caire ,1904
- Loudolph , Description of the Holy land and the way thither, translated by Aubrey Stewart,London,1895
- Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud et Dominico Trevisani , Paris,1864
- Schiltberger ,(J.) The bondage and Travel of Johan, schiltberger, native of Bavaria in Europe , Asia , Africa , (1396- 1427) , trans by Karl Fredric , London , 1859
- Souriano , Treaties on the holy Land,translated by Fr. Theophilus Bellorini ,Jerusalem,1948
- Wright ,(T.), Early Travelers in Palestine , London , 1948.

2012

ثانياً: المراجع الأجنبية :-

- Dopp,(P.h), Le Caire vu par les voyageurs accident du mogen ages, le caire,1951., tome 24-25.
- Margoliouth ,Cairo, Jerusalem and Damascus, london ,1907
- Prescott , once to Sinai The Further Pilgrimage of Felix Fabri ,Lon- don, 1957
- Wolff , How Many Miles to Babylon ? , Liverpool , 2003.

ثالثاً المصادر الأجنبية المترجمة :-

- بورخارد ، بورخارد من جبل صهيون وصف الأراضي المقدسة ترجمة سعيد البيشاوي ، عمان ، ١٩٩٥ م
- بيرو طافور ، رحلة بيرو طافور في عالم القرن ١٥ م ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ م
- جومار ، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة ايمن فؤاد السيد ، القاهرة ، ١٩٨٨ م
- فارتيتما ، رحلات فارتيتما (الحاج يونس المصري) ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ م.
- الوزان ، (الحسن بن محمد الوزان الزياني المعروف ب جان ليون الأفريقي) ، وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، السعودية ، ١٣٩٩ هـ.

رابعاً المصادر العربية :-

- ابن إياس ، (محمد بن أحمد بن إياس المصري ، ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ، بدائع الزهور ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢،
- ابن الأخوة ، (محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بأبن الأخوة ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م)
- معالم القرية في أحكام الحسبة ، تحقيق روبن ليوى ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، ب.ت.

- ابن أبيك ، (أبو بكر عبد الله بن أبيك ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) ، كنز الدرر وجامع الفرر ، الجزء الثامن الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١ م
- ابن بطوطة ، (عبد الله بن محمد بن إبراهيم ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) . تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ١٩٦٠ م
- ابن تغرى بردى ، (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م
- حوادث الدهور ، حررها وليام بيير ، كاليفورنيا ، ١٩٣٠ م
- ابن الحاج ، (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسى ت ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م) ، المدخل إلى الشرع الشريف ، دار الحديث ، بيروت ، ١٩٨١ م .
- ابن عبد الظاهر ، (محي الدين بن عبد الظاهر ، ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) .، الروضة البهية الزاهرة في خطط القاهرة المعزية ، تحقيق ايمن فؤاد السيد ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٦ م
- ابن الفرات ، (ناصر الدين محمد عبد الرحيم ، ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) .، تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ م ٩ تحقيق قسطنطين رزيق ، نجلاء عز الدين بيروت ، ١٩٨٣
- ابن شاهين ، (غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهري ، ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م) .، زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك ، صححه بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م
- البغدادي ، (احمد بن عبد الله بن عبد اللطيف البغدادي) ، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ط ٢ ، الهيئة العامة ، ١٩٩٨ م
- البلوي المغربي ، (خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن خالد البلوى) ، تاج المفرق ، في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن السائح ، الدار البيضاء ، ١٩٧٠ م .
- الحميرى ، (محمد بن بعد المنعم الحميري) ، الروض المعطار في خير الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠ .
- الحنبلي ، (القاضى أبو اليمن مجير الدين الحنبلى ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) ، الأنس الجليل

بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م

- الدمشقي ، أبي البقاء محمد عبد الله محمد البدرى المصري الدمشقي ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ
- العمري ، (شهاب الدين أبي العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمري ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج ٢ ، تحقيق دوروتيا كرافولسكي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
- السيوطي ، (الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج ٢ تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٦٨ م
- الصيرفي ، (علي بن داود بن إبراهيم الصيرفي ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) ، - نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣ م .
- القزويني ، (زكريا بن محمد بن محمود) ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ م ،
- القلقشندي ، (شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، دار الكتب المصرية ، ج ١٣ ، ١٩١٣ م . - في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣ م
- النويري ، (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج ٩ ، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة ، الهيئة العامة ، ١٩٩٠ م
- المفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد والدر الفريد ، نشر Blauchet ، ج ٢ ، ١٩١٩ م
- المقریزی ، (تقى الدين أحمد بن علي المقریزی ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) . السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ق ٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٨ م
- الخطط المقريزية المعروفة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، نشر كلية الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٦ م .

خامساً المراجع العربية :-

- أحمد عبد الرازق ، المرأة في مصر المملوكية ، الهيئة العامة ، ١٩٩٩ م
- رئيسة عبد الفتاح ، نابلس في العصر المملوكي ، فلسطين ١٩٩٩ م
- سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة المصرية ، ١٩٦٢ م.
- عبد القادر الريحاوي ، مدينة دمشق وتراثها ، دمشق ، ١٩٦٩ م
- علي السيد علي ، ” القاهرة في عيون الرحالة الأوروبيين في القرنين ١٤ ، ١٥ : مجلة الفكر العربي ، العدد ١٣ ، ١٩٨٨
- محمد عدنان ، بحث في تاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٩٠ م
